الشعر ... هو الذي يخلق الثورات

وشعرنا القومي لعب دوره الخطير في إثارة العرب منذ بدء تاريخهم إلى الآن

مقال أديب الشهباء الأستاذ سامي الكيالي في قصيدة شاعر الشام الأستاذ شفيق جبري

في مهرجان الشعر عشت لحظات وأنا نشوان من خمرة الشعر.

وأثر الشعر في النفس كفعل الخمر ونمنمة السحر.

نعم، عشت لحظات في عالم جميل من النغم، استمع إلى الشعراء، وإلى الأدباء.. تثيرني الكلمة كما تثيرني الفكرة...

كان استهلال القصائد بمجموعها نغمات في تحية دمشق — المدينة الخالدة التي حملت وقر القومية العربية على ممر العصور — تحية لأيامها الغر لنضالها وكفاحها، لزهورها العبقة، لبرداها الجميل، لقاسيونها الأشم، لغوطتها المعطار، لطبيعتها الجميلة المغناج، وبعد فالتحية للروح العربية التي انطلت تعيد للأمة سيرة من تقدَّمها من أبطال العرب الميامين...

وقد كان للآراء التي انتثرت على أفواه الكتّاب والشعراء

كمدخل لعالم مسحور - عالم قوميتنا المنطلقة التي انتفضت منذ قرن ونصف تقارع الأحداث وتصمد للأعاصير.. وما زالت، في خضم من القراع والصراع، إلى أن استوت على أرجلها شابة فتية تخوض الغمرات مندفعة كالسيل الجارف..

قال لي صديق يؤمن بفلسفة القوة: ما الحفاوة بعالم الشعر في هذا العصر المادي؟

وفات هذا الصديق أن الأمم مهما أوغلت في ماديتها لا تستطيع أن تنأى عن عالم المثاليات ــ بل ربما كان هذا العالم المليء بشتى ألوان النغم هو الذي يدفع الأمم لأن تكون قوية.

وقد لعب شعرنا القومي دوره الخطير في إثارة العرب منذ بدء تاريخهم الطويل إلى فجر يقظتهم الجديدة.

فأيماننا بسحر الكلمة، وتعلقنا بالشعر الذي يثير فينا القوة لن يصرفانا عن الأخذ بكل ما يفرضه علينا عصر المادة.

وقد رأينا، في فترة ما بعد الحرب الأخيرة، أدباء القصة وقد أوغلوا في إخضاع هذا الفن الجميل للأهداف الفلسفية أو السياسية، حتى بات مسخاً مشوهاً من أفكار لا تحس لها نبضاً. على حين أوغل فريق آخر، أسبق من هذا الفريق الأول، في امتهان اللغة أو في استثارة الغرائز الجنسية لدى القارئ لا لغاية سوى ترويج مؤلفاتهم.

والأدب العربي الحديث، بعد هذا سائر في طريقه الطبيعية نحو

غاية إقليمية إنسانية على صعيد واحد، مستجيباً في ذلك للتنزعات الإنسانية العالمية بحدود ما يملك أصحاب هذا الأدب العربي الحديث من المواهب والتجارب والإمكانات الثقافية.

فالشعر هو الذي يدفعنا إلى الأخذ بكل ما تفرضه حضارة العصر من مذاهب لنكون أقوياء.

وأعود إلى القول إن الشعر كالموسيقى لها آثرهما الفعال في إضفاء البهجة على حياة الشعب مهما أريد توجيهها إلى الحياة المادية.

وتركت صديقي يتخبط في بيداء آرائه وقلت له مهلاً..

ولنترك ثرثرتنا في المادية والمثالية إلى ختام المهرجان لنناقش الموضوع بترو وهدوء وانطلاق...

كان صديقي يحدثني في الفترة التي درج فيها شاعر مرموق إلى المنبر ـ شاعر عاش طوال حياته يكتب وينظم، ولأدبه ولشعره أثره القوي في التوجيه القومي.

درج الشاعر الكبير متمهلاً إلى المنبر بين عاصفة من التصفيق، وبدأ يتلو قصيدته..

واشرأبت إليه الأعناق..

إنه شاعر الشام وأديبها الكبير شفيق جبري..

فما كاد يتلو المقطع الأول من قصيدته حتى رأينا الجمهور ـــ

وأفراده من صفوة رجال الفكر ـ يتجاوبون مع الشاعر تجاوباً قوياً.

وكان لهذا التجاوب أثره في نفسية الشاعر فاندفع يغني أمجاد أمته بقوة واعتزاز.

كان يقص قصة...

أي قصة؟

قصة الأمة العربية في تاريخها الطويل المدى ـ قصة نضالها المرير، صراعها العنيف في سبيل الحياة الحرة، معاركها الجسام، انتصاراتها التي أعطت الثمرات، الأثر الذي تركه عباقرتها في تاريخ الحضارة.

كانت القصيدة لوحات متميزة..

في كل صورة من حياة الأمة العربية..

لقدى استمعت إلى رائعة صديقي جبري فهزتني في الكثير من مقاطعها، وهي في حدود الثمانين بيتاً، وحين وصل إلى الدور الذي لعبه الأمير الحمداني سيف الدولة في تاريخ العرب، أي حين وصف بطولته وأثره في صون بلاد الشام من الزحف البيزنطي شعرت بنشوة ما بعدها نشوة.

ومع أني عشت فترات طويلة مع هذا البطل العربي، وقرأت الكثير مما كتب عنه ـ أريد الذين أنصفوه والذين ظلموه ـ أقول حين سمعت صوت الشاعر يجلجل في وصف بطولته بأبيات لا تتجاوز العشر انتشيت وآمنت بسحر الشعر.

فقدا يصف الشاعر بطولة البطل وتاريخ مغامراته ببضع أبيات تكون أخلد في الذهن وأكثر أثراً في النفس من الكثير مما يدونه المؤرخون. نعم، قد يروي الشاعر ظمأك ببضع أبيات بما لا يستطيعه المؤرخ بعشرات الصفحات!

إن كل من درس تاريخ الحمْدانيين يعرف أن بعض المؤرخين قد ظلموا الأمير سيف الدولة ـ هذا البطل الذي لا يقل في بطولته عن الكثيرين من أفذاذ أبطال العرب.

ففي الفترة التي انهارت فيها الإمبراطورية العربية الكبرى، وأصبحت دويلات صغيرة بيد الخلفاء الضعفاء الذين أسلموا أمرهم إلى الأعاجم ـــ إلى الأتراك والديلم الذين سيطروا سيطرة كادوا يقضون بصلفهم وشعوبيتهم الخسيسة على الروح العربية الأصيلة، وليس هذا فحسب بل أفسحوا المجال للبيزنطيين أن ينقضوا على البلاد العربية لاستعادة سيطرتهم عليها ـ في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأمة وقف سيف الدولة وحيداً في المعركة يناضل أي نضال، وما زال إلى أن دفع عن بلاد الشام أضخم زحف بيزنطي.

لذلك صفقت كثيراً حين ارتفع صوت شاعر الشام وهو ينشد بزهو وكبرياء المقطع التالي:

هذا ابن حمدان والآثار ناطقة ... فما يعفى على آثاره القِدَمُ

حمى الديار ديار العرب فانطلقت ... له الأناشيد والأوتار والنغمُ

مَلَ البطاريق من غاراته وبدا ... على البطاريق من أهوالها السَّأمُ

إلى أن قال:

لو كان يعبد دون الله من صنم ما كان لي غير سيف الدولة الصنم

لولا جهاد بني حمدان في حلب ما كان للعرب تاريخ ولا علم

... لولا جهاد بني حمدان في تلك الفترات العصيبة، ولولا سيف الدولة يصد أضخم زحف بيزنطي لما كان للعرب تاريخ ولا علم!

لقد هال هذا القول بعضهم فأخذ علي الأستاذ جبري أن ينظر هذه النظرة التجزئية التي تمزق أوصال الحوادث وتجردها عن معانيها فتساءل: لو انهزم الحمدانيون أيذهب العرب في العراق ومصر وشمال إفريقية وبلاد الأندلس؟

ولماذا هذا التخريج؟

لقد نسي الكاتب ما كان عليه العرب في تلك الفترة، وكيف تمزقوا شذر مذر، وكيف سادتهم الأنانيات والشهوات واستسلموا للأعاجم يسيّرون دفة الملك بوازع شعوبي هدام!

نعم، لولا جهاد بني حمدان لما كان للعرب هذا الشأن الذي حفظ لهم، في بلاد الشام وفي غير بلاد الشام، عزتهم وسيادتهم.

دويلة صغيرة نشأت في حلب فوقفت تحمي الثغور، وقد تألّبت عليها الدول العربية المجاورة، وثارت الفتن الداخلية، وكان بعضها يمهد للأجنبي أن يطيح باستقلال العرب، فكانت وقفة سيف الدولة ـ هذا البطل المغوار ـ شجى في حلوق البيزنطيين.

ولكي نعرف مدى الخطر الذي أحسه البيزنطيون من غزوات سيف الدولة الذي وصلت به إلى حدود القسطنطينية، حسبنا أن نعلم أن البيزنطيين جمعوا جيشاً ضخماً من الروس والبلغار وغيرهم حتى بلغ تعداده المئتي ألف مقاتل..

فلو تخاذل سيف الدولة وباع نفسه للأهواء كما باعها الكثيرون من الخلفاء والأمراء أما كان البيزنطيون حكموا بلاد الشام طويلاً؟ ومن يحكم بلاد الشام ألا يسهل عليه أن يمتد حكمه إلى غيرها من بلاد الإسلام.

فالحروب الصليبية ذات المنازع الاستعمارية لم تبدأ منذ عهد صلاح الدين بل بدأت في الواقع، منذ عهد سيف الدولة.

أقول هذا وأنا مطمئن كل الاطمئنان لما أقوله.

لذلك فقد عبّر الأستاذ جبري بهذا البيت:

لولا جهاد بني حمدان في حلب لما كان العرب تاريخ ولا علم

عبّر أصدق تعبير عن منطق التاريخ.

وبعد فإن في قصيدة شاعر الشام الكثير من اللوحات الوطنية التي ترمز إلى أضخم الأحداث ـ إلى البطولات بمدلولها العميق، إلى الأثر الذي تركته هذه البطولات في ضم شمل العرب في يقظتهم الشاملة:

أما ترى العُرْبَ من إغفائهم نهضوا في كلّ فجٍّ لهم زحف ومقتَحَم

كأنما بعثوا التاريخ من أمم فاليوم مجدهم من عيننا أمم

إن أغنيات جبري في الكثير من قصائده تدعو العرب إلى الوحدة الشاملة.. وأخشى ما يخشاه أن يعصف الشقاء بهم، وأن تبدد النزوات والزعامات شملهم.. إنه يريدهم أن يكونوا كتلة متراصة لرد كل غزو أجنبي وإلا فقد ندموا أي ندامة.

سيندم العرب إن طال الشقاق بهم وليس ينفع عض الكف والنَّدمُ
لم ننْبن مُلكاً ولم نلهج بثورته ليهدمَ العُربُ ما نبني ويختصموا

فالشاعر لا يطيق أن يرى العرب متفرقين، متنابذين قد عصفت بهم الأهواء، فإذا رآهم في حالتهم هذه، انطلق شعوره يبكي ويتألم:

هذا فؤادي وقد هاجت هوائجه فكان مثل لهيب النار يحتدمُ
ليست قوافيَّ ما غنيت سامعها وإنما عبرات الصلب تنسجمُ
فهل أرى العُربَ أغصاناً يلفهم على الديار بيان الغرب والرّحمُ
حتى يعيدوا ضحى التاريخ خافقة أعلامه، فيرف العزُّ والكرمُ

حين أتلو مقاطع هذه القصيدة العصماء أجدني كمن يقف أمام بناء شامخ.. أمام قصر منيف استطاع أحذق المهندسين أن يقيم قواعده ويرفع ببنائه على أسس راسخة.

وكما يروقك منظر هذا القصر المنيف، وتتأمل هذه الروعة التي أضفت على واجهته تزاويق الفن، يروقك أن تدخل أبهاءه وغرفه ومخادعه وتتأمل زخارفه ونقوشه وجميل أثاثه. كذلك شأن الأديب

حين يستمع إلى قصيدة تعب الشاعر في خلقها وإضفاء شعورد على كل مقطع من مقاطعها.

فالواقع، أن الشاعر، مهندس فنّان، فحين يصمم بناء قصيدته، يعد لها أمتن الأدوات.. وأدوات الشاعر كلام مصقول، وبيان مشرق، وألفاظ جزلة، وذوق شاعريّ، وإحساس مرهف، وشعور فياض، وعين نافذة، ورجوع إلى الماضي، وانفعال مع الواقع وإلى ما شئت من الانفعالات والأحاسيس التي تضفي على بناء القصيدة جواً شاعرياً تُسَرّ به النفسُ وتَقَرُّ به العينُ وتجعلها خالدة على الأيام.

وقصيدتك يا صديقي كالعمارة الشاهقة التي ضمت كل ما تضمُّه العمارات من ذوق وفن ودقة صنعة.

إنها ألوان من الأحاسيس القومية التي تنقل القارئ إلى الماضي المليء بالأمجاد، وما تزال تعبر قنطرة التاريخ إلى أن تواجه مع حاضره وواقعه بشتى تياراته وانفعالاته ويقظاته.

لقد كانت آية المهرجان، ولا نتجّنى على قدسية الشعر حين نقول إنها نفحة عميقة من نفحات المتنبي. نعم، إنها آية المهرجان. وكم لك أيها الصديق من آيات خالدة هززت بها ضمير الأمة وهي تناضل عن سيادتها وحريتها في أحلك وأعنف أيام النضال.

سامي الكيالي

القومية العربية

في كتاب الأستاذ شفيق جبري «أنا والشعر»

اصدر معهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية كتاب ـ أنا والشعر ـ وقد اشتمل على مجموع المحاضرات التي ألقاها عميد الشعر الأستاذ الكبير شفيق جبري على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغوية. وكان من حسن حظي أن عشت أياماً في مطالعة هذا السفر، إذ لم يسبق الأستاذ العميد شاعر ولا كاتب إلى الإفضاء بأسرار فنه وخصائص حياته الشعرية والأدبية، ومامر بها من مفارقات، وما أكنته من مشاعر وأحاسيس

فأنا والشعر كتاب فريد ظل مكانه خالياً في خزانة الشعر على وفرة ما في هذه الخزانة الفنية من كتب ودواوين، وقد كان من حسن حظ الشعر والأدب أن كان الأستاذ العميد شفيق جبري ببيانه الموفق وأسلوبه السهل الممتنع صاحب هذا الكتاب الفريد الرائع، الذي لا نظير له فيما أعتقد، ولا مثيل.

وإذا كان الذين أسعدهم الحظ بدراسة هذا الكتاب والاستمتاع بحديث الأستاذ شفيق جبري ـ مد الله في حياته ـ عن شعره منذ أول عهده بنظم الشعر قبل ست وأربعين سنة ـ عندما كان الذوق

ما زال سليماً فلم يستفض فيه هذا الطراز من الشعر ـ الرخو ـ الذي استفاض في أيام الناس هذه، حتى انتهى فيه إلى تبوُّؤ هذا المقام السَّنِيّ في دولة الأدب والبيان قد أسفوا لأن الأستاذ العميد لم يواصل حديثه في استفاضة وإسهاب لينالوا من هذا الأدب البكر، والبيان العربي العذب غذاءاً تصح به الأذواق المريضة وتطرب القلوب السليمة، وتشب العاطفة القومية الصحيحة ـ فإني كنت وأنا أقرأ الكتاب ـ أنا والشعر ـ كمن مثلت بين يديه ذكريات حقبة غير قصيرة من أيام شبابه الماضي، وهل أعز على المرء من أيام شبابه؟ وهل أحلى لديه من بواكير حياته؟

كان الأستاذ العميد يتحدث عن قصائده فيتمثل لي وأنا أقرأ كيف كنت أذهب إليه في ديوانه في وزارة المعارف إمَّا، لا تسلم منه القصيدة التي يتحدث عنها لانشرها في جريدة ـ المقتبس ـ حيث بدأت حياتي الصحفية أو في غيرها من الصحف بعد إقفالها، وإمّا لأطلعه على هذه القصيدة ليصلح الأخطاء المطبعية، لأنه كان يحرص على إصلاح قصائده بنفسه.

وكانت تكرّ بي الحياة القهرقرى فأرى ما كان لقصائد شفيق جبري من أثر في محافل الحكم، وفي أندية السياسة وفي حلقات الأدباء والمتأدبين، وما كانت تذكيه في النفوس وتشبّه في القلوب من عواطف ومشاعر، وما ترهف من عزمات، وتثير من همم.

وفي تلك الأيام، حيث كان سيف الاستعمار مسلطاً على

الألسنة، فما تنطق إلا جمجمة، وعلى الأقلام فما يخط أكثرها غير عقود المديح، ولا يدبّج غير الحمد والثناء، وكل ما يقربها من المستعمر الغاصب.. لم يبال شفيق جبري أن يندد بالتضييق على حرية الفكر وفرض الرقابة على الصحافة قال:

أيها القوم أفيقوا ويحكم ... وثب الدهر فما هذا الونى؟
أخفض الصوت ولا تجهر به ... رُبَّ صوت هاج فيك الظننا
عقدوا الألسن حتى صمتت ... ما ترى للقوم فينا ألسنا..

وأذكر أن المجمع العلمي العربي عندما أقام حفلاً لتأبين الكاتب المعروف المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي، وقف شفيق جبري أحد أعضائه ليلقي قصيدته فأهاج الناس والمقام تأبين ورثاء عندما فجأهم بقوله:

ألم يكفنا أن نضيع الديار ... فرحنا نضيع رجال الفكر

فما أعظم أيمان الأستاذ جبري بالشعر والأدب، فهو يرى أن فقدان البيان العربي الحر لا يعادله إلا فقدان الديار، ولطالما شاهدت وأنا أتلو كتاب ـ أنا والشعر ـ مولد بعض القصائد، ولا سيما القصيدة التي رثى بها فقيد الصحافة الكبير المرحوم الأستاذ أحمد كرد علي صاحب المقتبس، فتحدث فيها عن دمشق فقال مد الله في عمره:

لكن (جلق) في ازدحام خطوبها ... جبارة بكهولها وشبابها
لم تستنم لأذى فإن هاجت بها ... دهم الخطوب أوت إلى أقطابها
عركت عروبتها السنين فأقلقت ... عبث السنين بجدها وبنابها

ظـل العروبـة وارف فـي جلـق متمكـن فـي أرضهـا وسـحابها

ومن لا يذكر من أبناء جيلنا ما كان من أثر عظيم لفقد الزعيم الوطني المرحوم فوزي الغزي، إذ تطلعت الأنظار إلى الأستاذ شفيق جبري ليصف هذا الخطب الفادح الذي حل بالبلاد عامة، وبدمشق خاصة، فقال يومئذ قصيدته الخالدة التي وصف فيها المجاهدين القوميين رجال الكتلة الوطنية بقوله:

بدمي وروحي الناهضين على الطالعين على العرين أسودا
الزاحفين إلى القيود وملؤهم عزم يحل سلالاً وقيوداً
الرافعين إلى الثريا عزهم عزاً يقلقل دهرهم صيخودا
المخلصين لربعهم مضض الهوى النازعين سخائماً وحقوداً
طمحوا إلى استقلالهم بدمائهم لم يألفوا التذليل والتقييدا
لما رأوا باب الكرامة مغلقاً جعلوا السيوف لبابها إقليدا
ابت المكارم أن تذل رقابهم وأبت أمية أن تكون عبيداً

وفي الحفل الذي أقامته الكتلة الوطنية في مدرج الجامعة السورية لتأبين الزعيم الكبير المرحوم إبراهيم هنانو وقف شفيق جبري يلقي قصيدته فهاج الناس وماجوا، وتطايرت العمائم واشتدت الحماسة وقد قال حفظه الله فيها:

أمةٌ تَنْشُد الحياةَ ومـاض ملأ الدنيا من دويٍّ وثابه
سحب المجد كالضخم على الأر ض فضاقت فجاجها بانسحابه
حاولوا صدع شملها واستثاروا كل جنس لصدعه وانشعابه
حجب الله كيدهم عن مغانيها فعاشت منيعة في حجابه

هكذا كان شفيق جبري يخاطب الاستعمار والمستعمرين.. فيرى أن الله اصطفاهم للهدم والخراب.

ولم ينس الناس بعدُ أن البلاد أضربت إضرابها الخمسيني المعروف بعد هذه الحفلة، واستأنفت جهادها للاستعمار بأسلوب جديد كان الأول من نوعه يومئذ. إذ لم يكن قد سبق دمشق والبلاد السورية بلد من البلدان عزم وأصر هذا الإصرار العجيب على مقاومة المستعمر بكل سلاح حتى سلاح الإضراب العام خمسين يوماً متواصلة، و لله در الأستاذ شفيق جبري إذ يقول:

هكذا المجد هبّةٌ سلك الغـ ـب إليها دربـاً على النار صعبا

وفيما كنت أقرأ الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب الفريد فتحت المذياع فإذا بي أستمع إلى الأستاذ العميد في مهرجان الشعر يلقي بقلبه، وبشعوره، وبكل جارحة من جوارحه معلقته المنقطعة النظير، التي طبق دويُّها الوطن العربي الأكبر، فراح كل عربي أصيل يهتف بحياة الأستاذ شفيق جبري الذي أتحف الأمة العربية، والشعر العربي بهذه المعلقة الكبرى عن بطولات الأمة العربية. وما زال صوت المذياع يرن في أذني وهو يملأ العالم هتافاً لكل بيت من أبيات هذه المعلقة الخالدة.

وإذا كان الشعر العربي في عهد ازدهار دولة العرب قدم لنا أبياتاً متفرقة في قصائد كثيرة لتخليد بطولات الأمة العربية، وكان

قصارى الشعر الحديث أن يروي لنا أبياتاً قليلة في تمجيد هذه البطولات، فإن الأستاذ العميد شفيق جبري أربى على كل شاعر متقدم أو متأخر، فوقف أبيات معلقته الكبرى التي تجاوزت الثمانين كلها على تمجيد بطولات هذه الأمة العربية، والنداء بوحدة العرب حيث قال:

هذا فؤادي وقد هاجت هوائجه — فكان مثل لهيب النار يحتدم
ليست قوافي ماغنيت سامعها — وإنما عبرات القلب تنسجم
فهل أرى العرب أغصاناً يلفهم — على الديار بيان العرب والرحم
حتى يعيدوا ضحى التاريخ خافقة — أعلامه فيرف العز والكرم

رشيد الملوحي
الأيام ١٩٥٩

الأستاذ شفيق جبري
يرأس مناقشة مهمة في أميركا

المناقشة جرت في جامعة ستانفورن وموضوعها الإسلام والحياة الحديثة

الإسلام بقي إسلاماً برغم تشدد عمر بن الخطاب وتساهل معاوية

لا يزال الأستاذ شفيق جبري عميد كلية الآداب وعضو المجمع العلمي يتنقّل في الولايات المتحدة ويزور جامعاتها ويطلع على خصائصها، وآخر جامعة زارها إنما هي جامعة ستانفور» وهي واقعة في مدينة صغيرة فتانة اسمها لجدآلو بالتو» أهلها يسمونها: مدينة الحدائق، وهي تقع على بعد ساعة بالقطار عن «سان فرنسيسكو».

دعاه أساتذة الجامعة إلى العشاء وإلى الاشتراك في مناقشة، وقد دعي أيضاً عميد كلية الآداب في الإسكندرية الأستاذ محمد خلف الله وأستاذ الفلسفة في الأزهر الدكتور البهيّ إلا أن الأستاذين المومأ إليهما تخلّفا عن الحضور في الوقت المعين، وبعد الفراغ من

العشاء سئل الأستاذ شفيق جبري: هل يريد أن يدير المناقشة وحده فقبل بذلك.

الإسلام وتطورات الحياة

المناقشة جرت في قاعة من قاعات الجامعة وحضرها فريق من الأساتذة والطلاب والأهلين، ولما استقر المقام بالحضورعرض على الأستاذ جبري هذا السؤال فجأة: هل يسع الإسلام تطورات الحياة الحديثة؟

الأديان تنزل من السماء:

فانبرى الأستاذ للكلام ولخص لهم رأيه في هذا الموضوع ومما قال لهم: إن الأديان عادة تنزل من السماء لتقرير السعادة على وجه الأرض، فهي توضح الصلة بين الله عز وجلَّ وبين الإنسان، ثم توضح الصلة بين المؤمن وأخيه، فأمور الدين إنما هي عقيدة وإيمان العقائد الدينية لا تثبت بأدلة رياضية كما تثبت قضية هندسية أو معادلة جبرية وإنما العقائد الدينية مركزها القلب، أما الحياة فإنها تتطور في كل حين، ففي كل يوم مذهب جديد وزي جديد وما شابه، ذلك والحياة لا تستطيع أن تبقى على نمط واحد، ويستطيع المسلم أن يتبع تطورات الحياة وأن يبقى مسلماً، فالإسلام إنما هو إسلام على كل حال، لا يضيق ولا يتسع، وإنما الذين يضيقونه ويوسعونه إنما هم المسلمون. ثم اندفع الأستاذ جبري في ضرب الأمثال وهذا بعض ما قاله للجمهور.

الإسلام بقي إسلاماً

إن الخليفة عمر بن الخطاب كان متشدداً كثيراً، وإن الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان متساهلاً كثيراً، وقد مات عمر وهو أمير المؤمنين ومات معاوية وهو أمير المؤمنين، وبقي الإسلام إسلاماً في تشدد الأول وتساهل الثاني.

لغة دين ودولة

وانتقل من ضرب هذا المثل إلى أمثال ثانية قديمة وحديثة قال لهم: إن اللغة قبل الإسلام كانت لغة بدو، ثم أصبحت بعد الإسلام لغة دين ودولة وفلسفة وعلم، فقد تتبع المسلمون تطورات الفلك في جميع مظاهره، وبقي الإسلام إسلاماً، وبقي المسلمون مسلمين.

دستورنا وتطورنا

وفي هذا العصر انتقلت الأسرة الشامية من حال إلى حال، وانتقل العمران من وجه إلى وجه، وانتقلت المرأة من مظهر إلى مظهر، حتى أصبحت تجاري النساء الغربيات في كثير من الأمور وانتقلت سياستنا من وضع إلى وضع، فقد اقتبسنا أكثر دستورنا أو أقله أو بعضه عن دستور الأميركان، وتتبعنا تطورات السياسة الحديثة ولم يؤثر هذا كله في ديننا، فقد بقي الإسلام إسلاماً وبقي المسلمون مسلمين.

عليهم أن يتصلوا بالمسلمين

فالذين يريدون أن يسع الإسلام كل شيء في الحياة يخرجون به

عن طبيعته والذين يرون أن الإسلام يضيق عن كل شيء يظلمونه، فقد يستطيع المسلم أن يتبع تطورات الحياة على قدر الإمكان وأن يبقى مسلماً.

فيجب على الأميركان أن يتصلوا بالمسلمين رأساً، وأن يقفوا على آرائهم في مثل هذه الأمور الخطيرة حتى يصلوا إلى الحقيقة، لأن الانقياد إلى آراء بعض المتحاملين على الإسلام أو بعض المتعصبين يبعد المسافة بين أميركا وبين الشرق، وأميركا الآن تحاول أن تنقل سياستها من الإطلانطيق إلى الباسفيك أي إلى البحر الهادئ لعل البشرية تهدأ بعد هذا الانتقال فيستقر السلام في العالم.

أسئلة عديدة

وبعد هذا البيان المختصر أخذ الحضور يطرحون الأسئلة على الأستاذ جبري بحسب الطريقة الأميركية، فالأميركان يريدون أن يعلموا كل شيء في أسرع وقت، كان الأستاذ خرّاجاً ولاّجاً في هذا الموضوع يخلط الجد بالهزل طبقاً للعقلية الأميركية حتى خرج من القاعة بين الإعجاب والتصفيق.

كلمة مقرر لجنة الشعر بالإقليم الشمالي

في عصر مثل عصرنا هذا استفاق العرب بعد أن أخذهم النوم حيناً من الدهر فجعلوا ملء أعينهم قوميتهم في الماضي والحاضر وتصرّفت الهمم بهم في إحياء هذه القومية الرائعة، في عصر مثل هذا العصر نلتفت إلى أدبنا فلا نجد فيه ما يبعث على هذا الإحياء إلا الشعر وإلا الشعراء.

لم يدوّن أحد من مآثر العرب ما دوّنه الشعراء، فقد كانوا الألسنة الناطقة في كل معرض من معارض البطولات في التاريخ، فهم الذين ألقوا الألوان الزاهية على معاركنا حتى كدنا نشهد تلك المعارك بأعيننا، ونسمع ضوضاءها بأذاننا، فلم يقصرّ شعراؤنا في أحياء مفاخرنا وما أظن أن التاريخ نقل إلينا من انتصاف العرب من العجم في وقعة ذي قار ما نقله إلينا شعراء تلك الوقعة وفي مقدمتهم الأعشى، وما أظن أن التاريخ سجّل من بطولة بني حمدان في حروب الروم ما سجّله شعر المتنبي، لقد كان لسيف الدولة وجماعته الفضل الأكبر في رد البيزنطيين عن ديار الشام خلال عشرين عاماً، فلو لم يُرزق هذا الملك العظيم شاعراً عظيماً مثل المتنبي يخلّد جهاده لما كنا نشعر بروعة هذا الجهاد.

ما كانت تلك الحروب التي دفع فيها خلفاؤنا وملوكنا وقُوادنا وأمتنا شر العدو عن بلادنا، ما كانت تلك الحروب لولا الشعراء الذين أفرغوا عليها ما وهبه الله لهم من العبقرية حتى أنطقوا خيلها وسيوفها ورماحها، وعظموا فتحها ونصرها وحتى بتنا نفخر بفتح المعتصم وبنصر مثل نصر صلاح الدين.

ولئن جمع هوميروس في شعره مجد الإغريق في القديم لقد جمع شعراؤنا في القديم والحديث مجد العرب، فكان شعرهم مناراً نستضئ به في كل ظلمة تجنح.

كلما أوشكنا أن نغفل عن زاوية من زوايا هذا المجد، ونذهل عن ناحية من نواحي استقلالنا، طلعت علينا أبيات من المتنبي كانت راسخة في قلوبنا وأذهاننا فلمحت لمحة البرق في أثناء العاصفة، فذكرتنا بقوميتنا وحرضتنا على استقلالنا:

وإنما الناس بالملوك وما ... تفلح غرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ... ولا عهود لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم ... ترعى بعبد كأنها غنم

وكلما طفقنا ننسى وطننا ونلهو عن حرمته تراءى لنا شوقي فذكرنا بهذا الوطن ودفعنا إلى تقديسه:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

فما ينبغي لنا أن نيئس من عروبتنا ما دمنا نبجّل أمثال هؤلاء الشعراء الذين عظموا بطولاتنا في الماضي والحاضر وولدوا في قلوبنا الإعجاب بها.

تنبأ أحد الكتاب في الغرب فقال: إن الناس في أوائل القرن الواحد والعشرين لا يقرأون الشعر. معنى قوله هذا أن العلم سيقضي على الشعر والشعراء، ولكنا لا نعتقد أن البشرية تستغني عن الشعر والشعراء، فإذا كان العلم يستطيع في حسن استخدامه أن يفضي بالناس إلى سعادتهم فإن الشعر من طبيعته أن يسلخ هؤلاء الناس من أفقهم ليصلهم بأفق الملائكة. إذا كان الإنسان مركباً من عقل يفكر فإنه مركب من عاطفة تحب وتبغض، ترضى وتغضب، تفرح وتحزن، والشعر هو وحده لغة هذه العاطفة، لغة هذا الحب والبغض هذا الرضا والغضب هذا الفرح والحزن. فالشعراء هم الذين يلهبون في القلوب عاطفة البشرية فيخلقون فيها الرأفة والرحمة والحب والشباب. لقد جعل الله لهم روحاً تهتز لكل عظيم وتحس بكل جليل، فهم الذين يمثلون البشرية أصدق تمثيل لأنهم يعبرون عن شعورها ويفصحون عن طاقتها. وما أصحّ ما قال (ميل) في هذا المعنى: الشعراء هم شرف الأدب لا بل هم أصفى وجه من وجوه هذا الشرف.

فإذا فكر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في إقامة مهرجان للشعر، فلم يفكر هذا التفكير إلا

لعلمه بمنزله الشعر في استثاره النزعات القومية من جهة، وبمكانته في تمثيل الشعور والعاطفة من جهة ثانية، فإن الآداب والفنون، على نحو ما قال رئيس المجلس الأعلى السيد كمال الدين حسين، هي التي تصنع النهضات القومية وهي التي تصنع لكل أمة تاريخ غدها.

فنرجو أن يلهم الله شعراءنا في هذا المهرجان ما يلهب من نار هذه القومية ويعلي من قيمة هذا الشعور وهذه العاطفة.

شفيق جبري

مؤتمر صحفي للشعر العربي

عقده الشاعر الكبير الأستاذ شفيق جبري في دمشق أمس.

صدور بيان يقول: إن الآداب والفنون تصنع النهضات القومية

كتب مندوب الأيام الخاص في الساعة الخامسة والنصف من مساء أمس ـ الأربعاء ـ عقد الشاعر الكبير الأستاذ شفيق جبري مقرر لجنة الشعر في الإقليم السوري مؤتمراً صحفياً كبيراً في مقر فرع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في دمشق، حضر المؤتمر عدد كبير من الصحفيين والمراسلين ومندوبي الصحف، كما حضره عدد من الأدباء الكبار والشباب والشعراء، وقد رحب بهم الأستاذ جبري بما عرف عنه من لطف وأدب واينـاس، وبعد أن تلا البيان الذي ننشره فيما يلي، أجاب عن الأسئلة والمناقشات التي دارت. وشكر الحضور للأستاذ جبري حسن استقباله ووفادته، وأثنوا على جهوده المشكورة والنشاط الحميد الذي يستهدف إحياء الشعر ودعمه وتشجيع أهله.

قال البيان:

اقترح المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

أن يقام في الإقليم الشمالي مهرجان للشعر يشترك فيه شعراء من مصر وسورية، وتقرر أن يكون بدء المهرجان في ١٦ مايس الآتي، وأن يستمر ستة أيام تلقى في كل يوم من أيامه الخمسة الأولى محاضرة وخمس قصائد تختتم بحفلة غنائية، وقد دعي إلى الاشتراك في هذا المهرجان شعراء ومحاضريون من مصر والشام في مقدمتهم الأساتذة عباس محمود العقاد، وعزيز أباظة وأحمد رامي وصالح جودت وغيرهم من مصر، والأساتذة شفيق جبري وأنور العطار وسليم الزركلي وعدنان مردم وغيرهم من الشام.

لهذا المهرجان ولأمثاله من المهرجانات الشعرية فوائد كبيرة، منها أن شعراء مصر يتعرف بعضهم إلى بعض، وتتاح لهم فرصة المذاكرة بالشعر وبالنهوض به، وفي هذا التعارف ما يقوي الوحدة الأدبية بين الإقليمين، فإن كثيراً من شعراء سورية يسمعون بذكر إخوانهم شعراء مصر وقد قرأوا دواوينهم ولكنهم لا يعرفون أشخاصهم، وكذلك الأمر في شعراء مصر، فعلى هذه الصورة تقوى في المهرجانات الشعرية الصلات بين شعراء مصر والشام، إلا أن فائدة هذا المهرجان الكبرى أنه يستثير قرائح الشعراء فيخوضون في موضوعات شعرية مختلفة، ولا سيما موضوع الشعر القومي فهو الذي يهيج شعور الأمة ويذكرها بمآثر ماضيها وحاضرها فيخلق فيها قوة تبعث على النشاط وتزيدها ارتباطاً بقوميتها ووطنيتها.

ولا يقتصر شعراء المهرجان على إلقاء قصائد فنية، وإنما انتدب

قسم منهم لإلقاء الزّجَل العامي الذي له أثر قوي في طبقات الأمة العامة، وعلى هذا النحو يكون تأثير المهرجان في طبقات الأمة كلها.

هذه بعض فوائد مهرجان الشعر. والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، لمّا فكر في إقامة مهرجان للشعر في سورية، ولمّا أقام مهرجاناً لشوقي في السنة الماضية، ومهرجاناً لحافظ قبلها فإنه بتفكيره هذا يحقق هدفاً من أهدافه الكثيرة التي عبر عنها سيادة رئيسه، كمال الدين حسين في تقريره السنوي ٩٥٧، فمن أقواله في هذا التقرير ــ

إنّ الآداب والفنون هي التي تصنع النهضات القومية ــ وهي بذلك ــ التي تصنع لكل أمة تاريخ غدها.

فلا شك في أن إقامة مهرجان للشعر يعين على هذه النهضات القومية التي أشار إليها سيادة رئيس المجلس الأعلى.

مقرّر لجنة الشعر في الإقليم الشمالي

شفيق جبري

«لعلها حكاية النفس التي ارتضت التصوف عن قناعة، وأطلقت للعقل الملحاح عنانه للمعرفة والاختبار، وهي بعد حكاية أديب من الماضي يسمى هنا شاعر دمشق وأديبها الكبير، وإن لم تكن فيها سيرة الرجل، ففيها سريرة الشاعر، فهذا الذي كانت تعرفه الصحافة والسياسة وتعرفه حلقات الفكاهة، عاش عمره مغلقاً على نفسه، لا يرى الناس فيه سوى كآبة ناعمة في عينيه تستحلفك أن لا توغل نظرتك متقصياً ما في الروح».

هذا الشاعر

من دمشق

الاسبوع العربي

عام ١٩٦٢

أدبنا قديم متزمّت.. وجديد خليع

«الأيام» تستفتي كبار الأدباء

أصحاب الأسلوب العربي الصريح في القرن التاسع عشر

الإلتزام يجعل الأديب كالآلة يحركها المجتمع ويسكنها كيف يشاء

الشعر المنثور لا يؤثر في القلوب تأثير الشعر المضبوط بوزن

الأستاذ شفيق جبري من فحول شعراء العصر وأوائل الرواد. رآه أحمد شوقي في دمشق فقال: «هذا شاعر» ولم يكن قد سمعه ولا قرأ له. تتلمذ على يديه جيل من أدباء الشباب في كلية الآداب القديمة.

وفتح بكتابيه، «الجاحظ والمتنبي» فتحاً جديداً في منهج البحث.. وأشاع في كلية الآداب الحديثة ـ إذ كان عميدها ـ حرية البحث العلمي. وهو هنا يدلي برأيه صريحاً كعادته:

ممدوح حقي

تحدث عن الأدب الحديث في مبناه وفي معناه فقال:

إذا رجعنا إلى أولية الأدب الحديث أي إلى بدء النهضة الحديثة

في القرن التاسع عشر وجدنا ما يدهش العقول، فإن الذي يقابل بين الأدب الذي ظهر في القرن التاسع عشر، وبين الأدب الذي ظهر قبله يستغرب كل الإستغراب هذا الفرق العظيم بين الأدبين، من ناحية المبنى ومن ناحية المعنى، فقد كان السجع غالباً قبل القرن التاسع عشر على الكتابات ولكنه سجع تبدو على معظمه الرخاوة والتفكك والسخافة وقد أولع الكتّاب في خلال القرن التاسع عشر بالسجع فانبرى بعض الأئمة للتنبيه على إجتنابه وفي مقدمتهم الإمامان الكبيران الشدياق واليازجي حتى عدل الكتّاب عن السجع ولجأوا إلى الإنشاء المرسل المجرد من كل كلفة وعلى رأس بلغاء المنشئين الشدياق واليازجي ومحمد عبده وغيرهم وغيرهم.. فإن الأسلوب العربي الصريح بُعث على أيديهم بعد أن مات أربعة أو خمسة قرون وفي معتقدي أن هذا البعث أعظم حادث حدث في القرن التاسع عشر.

ناحية المعنى

أما من ناحية المعنى فإن الذي يدقق في كتاب المويلحي «حديث عيسى بن هشام» وفي بعض كتب الشدياق يتبين له أن هذه الكتابات كانت نوعاً من الأدب الحي الذي يصور الحياة أدق تصوير وأبلغه، يصورها من كل ناحية من نواحيها وفي كل طبقة من طبقاتها .

لقد نشأ في القرن العشرين كتّاب بلغاء تمموا ما بدأ به القرن

التاسع عشر وطوروا الأدب إذا جاز لي هذا التعبير بعض التطوير فرفعوه إلى أعلى مراتب الفكر ثم نشأت بعدهم طبقة كادت تخرج على عبقرية الأدب ولا تبالي بالإنحراف عن روحه، وهل عليّ من حرج إذا قلت أن الأدب انحدر انحداراً عظيماً حتى أوشك أن يكون فوضى وإذا كنا ندعو ونشير في خطبنا وإذاعاتنا إلى القومية العربية فمن الواجب أن نهتم بأقوى مظهر من مظاهر هذه القومية وأعني به اللغة ولقد سمعت بقايا أئمة الأدب في مصر والشام يشكون انحدار الأدب حتى زهد بعض الكتاب في الكتابة وقبعوا في دورهم أمام هذا التيار الجارف ولولا فضل مجامعنا وجامعاتنا ومدارسنا لصارت اللغة إلى أسوأ مصير..

كنت أطالع في بعض مكتبات الجامعات في الولايات المتحدة فوقع إليَّ كتاب في أطوار اللغة الإنكليزية قرأت فيه أن أحد أساتذة الجامعات هاله إنحدار اللغة الإنكليزية وإنحراف الناس عن أصولها فكتب إلى الكونغرس أن يصدر قانوناً تصان به اللغة ويحافظ عليها..

فهل نبتكر في جملة ما نبتكره من المشاريع مشروعاً نحافظ به على الأدب.

الإلتزام في الأدب

أما عن الإلتزام في الأدب فقد قال:

أكاد لا أفهم هذا الإصلاح على حقيقة وجهه فإذا كان المقصد من الإلتزام أن يفرض المجتمع على الأديب أفكاره ومعتقداته حتى

لا يحيد عن هذه الأفكار وهذه المعتقدات في كتاباته، وحتى يكون في هذا المجتمع آلة يحركونها ويسكنونها كيف شاؤا فخير للأديب حينئذٍ أن يختار صناعة له غير صناعة الأدب خير له أن يكون خبازاً أو قصاباً أو دباغاً يخبز خبزه على الوجه الذي يريد ويشرح لحمه على الحجم الذي يريد ويدبغ جلده على الشكل الذي يريد.

إن حرية الأدب مقدسة فهي في مقدمة مقدسات الأمور فإذا أُكره الأديب على التقيد بآراء خاصة وبمعتقدات خاصة ضاعت شخصيته ولا سيما إذا كان لا يؤمن بهذه الآراء وهذه المعتقدات.

قد يتقيد الأديب بمجتمعه إذا كان يؤمن بما يؤمن به هذا المجتمع فحينئذ لابأس بأن تفرض عليه بيئته ما تريد ولكنه إذا كان لا يعبد ما يعبده هذا المجتمع فليفسح له في الحرية حتى يقول ما يريد وحتى يشعر كيف يشاء.

ولقد كنت ذكرت في فصل: المقال السياسي عبارة أبي بكر الخوارزمي في حرية الرأي: وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان وأسلف الشكر قبل الإحسان إلى آخر ما ورد في هذه العبارة البليغة مما لا حاجة بي إلى إعادته في هذا المقام فأصل الأمر في الديمقراطية حرية الفكر فإن للأديب شخصية فمن الضروري أن تظهر هذه الشخصية على آثار أدبه، أما أن يلهم أفكار المجتمع إلهاماً وتفرغ في خاطره معتقدات هذا المجتمع إفراغاً فهذا أمر مناف لروح الأدب والحرية.

لقد فرضت المجتمعات في القديم على أدبائنا طائفة من الأفكار

والمعتقدات كانوا لا يؤمنون بها ولكنهم لم يتقيدوا بها في كتاباتهم فكانوا يسخرون بها أشد سخرية لقد فرض المجتمع على الجاحظ جملة من الأباطيل والأضاليل والخرافات فبدلاً من أن يؤمن بها الجاحظ استفرغ كل عبقريته في التنبيه عليها والتحذير منها والسخرية بها ولولا هذا التنبيه وهذا التحذير وهذه السخرية لضاعت شخصية الجاحظ ولما تمتعنا بما نتمتع به اليوم من آثار هذه العبقرية العجيبة.

ولقد فرض سيف الدولة على المتنبي أن يتغنى في شعره ببطولته إلا أن المتنبي كان يؤمن بهذه البطولة أصدق إيمان وعلى الرغم من صدق إيمانه لم يستطع أن يقتل شخصيته فقد أبت هذه الشخصية إلا أن تظهر في خلال التغني ببطولة سيف الدولة أي أبت إلا أن تنعم بحريتها لأن الأديب حر قبل كل شيء يكتب لمجتمعه إذا كان يؤمن بما يؤمن به هذا المجتمع، ويكتب لنفسه إذا كان يؤمن بحرية هذه النفس قبل إيمانه بأفكار مجتمعه ومعتقداته.

الشعر المنثور

وحين تحدث عن الشعر المنثور الذي طغى في الآونة الأخيرة طغياناً مبيناً قال:

عناصر الشعر كثيرة وأعظمها شأنا حس الشاعر وخياله وموسيقاه، وقد يجتمع الحس والخيال في الكاتب، فكثير من الكتابات فيها صور شعرية بليغة ومع هذا كله فهي ليست من الشعر، فإذا كان الشاعر يؤثر بقوة حسه و خياله فهو يؤثر أيضاً

بموسيقى ألفاظه، والأوزان والقوافي من لوازم هذه الموسيقى فإذا اختل الوزن أو اختلت القافية مات الشعر فكما أن للموسيقى ألحاناً متناسقة وللرقص حركات متطابقة، فإن للشعر أوزاناً متناسقة متطابقة فإذا اختلت حركة من حركات الرقص ضعف هذا الرقص وإذا اختل لحن من ألحان الموسيقى ضعفت هذه الموسيقى فكيف لا يختل الشعر إذا اختل وزنه أو قافيته فالشعر المنثور المجرد من الوزن ومن القافية قد يشتمل على الصور الشعرية ولكنه لا يستطيع أن يؤثر في القلوب تأثير الشعر المضبوط بموسيقى الوزن والقافية، وليس معنى هذا أن كل شعر مضبوط بوزن وقافية يصح أن يكون شعراً، ولكن معناه أن كل شعر لا يتم تأثيره إلا إذا جمع صاحبه قوة الحس وطرافة الصور كما قلت وتقيدت هذه الصور وهذا الحس بوزن وقافية فالموسيقى اللفظية هي روح الشعر..

فمن أراد أن يميل إلى الشعر المنثور فلا بأس عليه ولكن فليحذف من هذه العبارة كلمة الشعر لتبقى كلمة المنثور وحدها وحينئذ تنقطع كل مناقشة في هذا الباب..

الأيام

١٦ /ك٢ /١٩٥٩